الأدب والعـــلم

للأستاذ محمد محمد المدنى

كتب إلىّ صديق من زملائى على عهد الدراسة كتاباً يقول فيه : —

« إنى مواظب على قراءة الرسالة بشغف واهتمام ، ولست تكتب على صفحاتها مقالاً إلا قرأته لك ، وتنسمت فيه روحك ، وثارت به فى نفسى ذكريات محببة عن أيامنا الجميلة التى كنا نختلف فيها إلى دروس الأدب والبلاغة يلقيها المرصفىّ وعيّارة والبطراوى والأسكندرى وغيرهم ، ونتجاذب فيها أطراف المحاورة ، وأهداب المذاكرة ، ونتساقى كئوس الشعر والنثر كأنها رحيق مختوم . وقد أذكر زميلنا الذى كان مولعاً — فى كتاباته الإنشائية — برواية أشعار المتنسكين والمتزهدين ، وأننا كنا نضرب فى الضحك إذا سمعنا أستاذ الإنشاء يقرأ طرفاً مما كتب ، ويحاسبه على أفكاره العتيقة . وما لهذا كتبت إليك ، ولكنى أريد أن أتحدث إليك فى أمر كثيراً ما هممت بأن أحدثك فيه :

أنت تعرف رأيى فى أسلوبك الكتابى وبحوثك العلمية ، وتعرف حبى لك وشديد غيرتى عليك ، فهل لى أن أسألك : لماذا تنحو فى اختيار موضوعاتك هذه النواحى الأزهرية فتتحدث عن الفقه وأصول التشريع ودراسات الأزهر وأسلوبه فى التفكير وما ينبغى له من علو ورفعة شأن ، ولا تراك تتحدث عن الأدب والشعر وهما فى هذا العصر أنشودة الشُّداة ، وأغرودة الحداة ، وثقافة المثقفين ؟ لو كنت أعلم أنك تخرجت فى علوم الشريعة لقلت : رجل مشغوف بما درس ، معنىٌّ بإشباع نهمه العلمى منه ، ولكنك تخرجت فى دراستك تخرج الأديب ، ونلت شهادة التخصص فى علوم البلاغة والأدب ، فكيف تجحد حقهما عليك وتنسى فضلهما فى تهذيبك وتثقيفك ؟ وهل تنجيب إلى الأدب طالباً ، وتتنكر له أستاذاً ، فتقطع به صلتك ، وتزوى عنه وجهك وتنصرف إلى غيره مما ليس منه ولا يتّ إليه ؟

ما هـذا الذى أغرمت به ، وملك عليك نفسك ، واستبد بقلبك ؟ وأىُّ فرق بينك وبين الزميل المتنسك الذى ألحدتُ إليه صدر هذا الكتاب ؟ ولمَ إذن كنت تسخر منه ، وتُغرب فى الضحك عليه ؟

لا يا صديقى ، ما لهذا يريدك أصدقاؤك ، وما لهذا أردت نفسك ، وما لهذا أعدتك « شعبة البلاغة والأدب » فى تخصص الأزهر . لا تكفر بالأدب ولا تنأ بجانبك عنه ، واستغفر لذنبك ودع الفقه والجدال فيه ، ودع الأزهر والحديث عنه ، والتحرق له والبكاء عليه ، فما ذلك بمغن عنك فتيلاً . وسوف يبقى الفقه كما هو ، وسوف يبقى الأزهر كما هو ، وسوف تضيع صيحاتك وصيحات غيرك فى شأنهما هباء كما ضاعت من قبلُ صيحات وصيحات ! عد إلى أحضان الأدب يا صديقى وأسمعنا شدوك عند رياضه وغياضه ، وطر إلى آفاقه ، وحلّق بخيالك فى سمائه ، فربما غنيت على قيثارته ألحاناً يرويها عنك الزمان ... »

* * *

هذا كتاب صديقى إلىّ ، أثبته كما هو لأنه وإن كان كتاباً خاصاً يتحدث عن شأن له ناحية من العموم ، ويمثل رأياً ينزع إليه جمهرة من شباب المتأدبين فى هذا العصر فهم به مولعون

ولست أرى أنى أغاضب الأدب وأجافيه — كما يتصور هذا الصديق — حين أكتب فى موضوعات علمية ، أو حين أعالج مشكلة من المشكلات الخاصة أو العامة ، فإن الأدب ليس محصوراً فى دائرة العاطفة والخيال وما يتصل بهما ، ولكنه أوسع من ذلك دائرة وأبعد أثراً . وقد أتى على الناس حين من الدهر وهم يظنون الأدب حلية تراد للزينة وتستكمل بها مظاهر الترف ، فكانت قصور الملوك والأمراء وذوى اليسار كما تضم الندمان والسقاة والجوارى والغلمان ، تضم الشعراء والكتاب والقصاص والرواة ، قصاراهم أن يكونوا أداة لهو وتسلية تشرح بهم الصدور وتُنسى الهموم . فلما ترفع الأدباء والشعراء عن تلك المنزلة قصدوا إلى الأدب والشعر بالتكريم فصانوهما عن التبذل فى خدمة الأمراء والثراة إلا قليلاً ، فأصبح الشاعر يقول ليرضى ذوقه الأدبى ، وأصبح الكاتب يكتب ليصف شعوره هو قبل أن يصف شعور الآخرين ؛ وبذلك استقل الأدب ، ونال الأدباء والشعراء حريتهم ، وانطلقوا يهيمون فى جوهم الصافى ، وينعمون بأحلامهم اللذيذة ؛ لا يحبون أن يكدرها عليهم مكدر ، ولا أن يفسدها عليهم مفسد ؛

ولكنهم كانوا من ذلك فى شبه غيبوبة عن الحياة العملية المثمرة ، لا يتفنون إلى صميمها ، ولا يُعنَوْن إلا بحواشيها وأطرافها ، ورضوا بالفقر حليفاً ، وبالبؤس صاحباً ؛ وخيلوا للناس أن الأدب والفقر صنوان ، ورضيعا لبان ! وأن الأدباء والشعراء هم وراث « أبى الشمقمق » فى كل زمان !

أما فى هذا العصر ، فقد تغيرت المُثُل ، واستبدل الأدباء بنهجهم فى الحياة نهجاً سواه : أصبح الأديب هو الذى ينفذ بعقله وذوقه إلى دقائق العلوم ، ومعضلات الفِكَر والآراء . هو الذى يجلو الغوامض ، ويفتح المغاليق ، وييسر المعاسير . ذلك اليومَ هو صميم الأدب ، وقصارى الأديب ، وذلك هو الوضع الصحيح الذى ينبغى أن تقوم عليه العلاقة بين الأدب والعلم !

من ظن أن الأدب فى هذا الزمان إنما هو أنشودة تنشد ، أو أغرودة تغرد ، أو خيال يسبح فى جوه المأفون ، أو وصف زهرة مشرقة ، أو طائر صداح ، أو عاشق ولهان ، أو قلب خفاق ، أو عين باكية ، أو ثغر بسام ، أو جمال فتان ، أو قد ممشوق ، فقد ظن عجزاً !

إن ذلك من الأدب حقاً ، ولا يستطيع أن ينكر ذلك منكر ، ولكنه اليوم ليس المثل الأعلى للأدباء ، وإنما هو لون من ألوان غذائهم الروحى يتشهَّونه الفينةَ بعد الفينة ، وهو بعد ذلك أقرب ثمرات الأدب إلى يد الأديب وأيسرها منالاً . أما العلوم والمعارف ؛ أما مشكلات الحياة وقضايا العقول ؛ أما سهر الليالى ومجافاة الجنوب للمضاجع فى سبيل التحصيل والتزود من زاد البصائر ، فتلك هى الحَلْبة لمن أراد السباق ! !

* * *

أعيذك بالله — يا صديقى — أن تستخف بأمر الفقه والأصول وأسرار التشريع ، أو يثقل عليك القول فى إصلاح الأزهر وتقويم ميله ، أو يداخلك اليأس حين ترى الداء مستشريًا والطبيب حائراً

إن الشرق الإسلامى قد استفاق من سباته العميق ، وإنه يريد أن ينهض وأن يستعيد مجده السالف يوم كان مصدر النور والمعرفة ، بل يوم كان مصدر الهداية ومنبت الخير ، ولو تأملنا بوادر هذه النهضة وتأملنا إلى جوانبها بوادر الانهيار ، بل عوامل الدمار التى تعمل عملها السريع فى إهلاك أعداء الشرق وخصوم الإسلام لكان لنا أن نؤمل دورة الفلك ، وأن نأخذ فى تكميل أنفسنا ، وتصحيح أخطائنا ، والرجوع إلى قوميتنا استعداداً لما ينتظرنا . وهذه الشريعة الإسلامية هى الشريعة التى نلنا بفضلها أسباب السماء فى الماضى ، ولم يجد أعداؤنا منفذاً إلينا ونحن متمسكون بها ؛ وفقه هذه الشريعة هو فقه الحياة والعمل ، هو فقه العدل والرحمة ، هو فقه الحضارة والمدنية فى أبهى صور الحضارة والمدنيــة ؛ فإذا تكلم فى شأنه المتكلمون ، ودعا له الكتاب ، وعرض الأدباء العاملون بعض صوره على الناس ، وخلصوه مما أضيف إليــه واختلط به ، كل بمقدار ما يستطيع ، فإنهم لا يقومون فى ذلك بواجب دينى فحسب ، وإنما يقومون مع ذلك بواجب قومى وطنى لا مناص لأهل العلم والأدب جميعاً من التعاون على حمل أعبائه . ومثل ذلك يقال عن الأزهر : ينبغى أن يلتفت إليــه أدباؤنا ، وأن يكتب فى شأنه كتابنا ، لأنه (جامعة الشرق) ، ووارث ثقافته ، وعنوان مجده ، ومعقد آماله !

إنك — يا صديقى — تقول لى فى كتابك : « سوف تضيع صيحاتك وصيحات غيرك فى شأنهما هباء كما ضاعت من قبل صيحات وصيحات » . وأحب أن أقول لك إنه لم يضع شئ أبداً ، وإن الذين صاحوا من قبل قد أثروا بصيحاتهم آثاراً بعيدة المدى فى العلم والتفكير والإصلاح . ويمكنك أن ترجع إلى عهد الأستاذ الإمام محمد عبده ، لتوازن بين عقلية الأزهر الماضية وعقليته الحاضرة فى العقائد والفقه وأحكام المعاملات والأحوال الشخصية ، فتلمس الفرق بينهما ، وتدرك أن صيحات هذا المصلح الدينى لم تذهب هباء

ولقد كان الأستاذ الإمام محمد عبده أديباً رائع البيان ، وكان له ذوق ممتاز فى فهم الشعر والنثر ظهر أثره فى تفسيره لما فسر من القرآن ، فهل منعه ذلك أن يؤلف فى علم الكلام ، وأن يفتى فى الفقه ، وأن يشرع شَبَاة قلمه لتأييد دعوته الأصلاحية الكبرى ؟

بل لقد كان الإمام الشافعى رضى الله عنه أديباً عاش فى البادية ونزل فى هذيل ، يقيم معها ما أقامت ، ويرحل معها إذا رحلت ، ويتعلم كلامها ، ويحذق لغتها ، ويروى أشعارها ، حتى بلغ من ذلك شأواً بعيداً ، ولكنه لم يجعل هذا غرضاً ، وإنما اتخذه وسيلة